



طريق دمشق بيروت لم يكن مزدحماً، ووصلنا بسرعة إلى الحدود.. وحيث وقفت أمام الأمن العام اللبناني في طابور ليس بالطويل، لفت انتباهي صوت طفل يسأل المرأة الواقفة جانبي: ماما.. أنت خيفانة؟ رفعت نظري إلى أمه؛ فرأيت عينيها مغرورتين بالدموع، وهي تمد يدها للطفل بعلبة بسكويت كي تلهيه ليكف عن السؤال؛ فلا تجيش مشاعرها أكثر..

وفي الزاوية، حيث تجمعت مجموعة صغيرة من النساء سمعت إحداهن تصف للأخريات كيف هوت البداية في حيها. على مشارف بيروت بدأ السائق يثرثر وأنا أستمع ولا أرد، وبعد أن انتقد الجيش الحر المراقب عند مطار دمشق، وأخبرني أنه كان على معرفة قريبة بحكم عمله السابق بعائلة الأسد، قال:

أحد اللبنانيين قال لي ساخراً أن بشار راحل؛ فقلت له بشار سيبقى رغم أنوفكم!  
– اللبناني على حق، ويشار زائل رغم أنفه هو، وأنف من والاه ووقف معه.  
فاجأ جوabi السائق؛ فحاول برم موقفه للاتجاه المعاكس:  
مدام.. أنا قلت له ذلك فقط لأنه لبناني ولا أريده أن يشمت بنا!  
وببدأ ينتقد النظام وكيف أفسد البلاد والعباد!!

أربع ساعات كان علي الانتظار في مطار بيروت حتى إقلاع الطائرة؛ فإن تصل مبكراً في هذه الظروف خير من أن تطير الطائرة بدونك!

ولا داعي طبعاً لإجراء مقارنة ما بين مطار بيروت ومطار دمشق الغني عن التعريف من حيث البناء والرحاة والخدمات والنظافة، والذي يسمونه تجنياً "مطاراً دولياً"!!!

استقبلاني في المطار صديق أحب سورية وشعبها، وعاش فيها عقداً من الزمن، وعرف عن قرب زمن حافظ الرديء، وخبر بعضأ من زمن ابنه، وقال لي: لم يخطر بيالي قط أن يحصل في سورية ما يحصل!  
ولماذا لم يتوقع ذلك؟.. فهل زرع فينا عهد الأسدية الخوف للأبد؟.. أم أنه قدمنا المحتموم أن تكون لهم عبيداً وتبقي بلادنا لهم مزرعة؟!

لقد فاجأني موقفه من الثورة وتخوفه من الإسلاميين؛ فعرفت أن الإعلام الغربي قد فعل فيه فعلته!  
ناقشتة؛ فأخبرني بشيء من عدم الاقتناع بكلامي، عن ذلك الفيديو اللعين الذي صوره عناصر الجيش الحر، وهو يقومون، رغم التوصلات، بإعدام بعض جنود الأسد على حافة الرصيف.

فقلت له: يا الله.. كل جرائم الأسد مسكونة عنها ولا تثير من الضجة ودرجة الاستنكار ما أثاره ذلك الفيديو، صحيح أن ما حدث خطأ ما كان ينبغي للجيش الحر اقترافه؛ ولا تصويره وعرضه؛ لكننا لا نعرف ما الذي فعله أولئك الجنود لتكون ردات فعل من أمسك بهم عنيفة إلى ذلك الحد.

وفي الصباح التالي، حيث وقفت أنتظراً لحافلة لتقالي إلى المشفى، قرأت مجدداً تلك الجملة المكتوبة على عمود الكهرباء هناك بلغة أهل ذلك البلد: نريد سلاماً لا حرباً.

وفي صباح آخر خرجت مع فلدة كبدي أدفع الكرسي المتحرك أمامي من غرفة المشفى إلى الهواء الطلق. كانت النفس حزينة مثقلة بالهموم رغم الشمس المشرقة، وتوقفنا عند التلة تتأمل بيوت البلدة المتناثرة تحتنا، وما أن رفعت بصري للسماء حتى لمحت طائرة مروحية، فتذكرت أخرىات تشبهها؛ لكنها غربان موت تحوم هناك.. في سمائنا السورية. لم يترك لي استئناري الدائم، ومكتوبي في المشفى من الصباح الباكر وحتى المساء، مجالاً للدخول إلى الشبكة العنكبوتية لمتابعة الأخبار المفصلة؛ ولكنني تابعت ذات مساء عبر شاشة التلفاز، تقريراً لا يأس به لمحطة CNN الأمريكية، عن ثوار حلب، لم يكن لدي شك بأصل المراسلة العربي، والتي تدعى أروى ديمون. ومررت الأيام سريعاً وحان وقت الوداع.. وداع يشبه الموت.

مسحت دموعي وهرولت خارجة من المشفى إلى موقف الحافلة التي ستقلني لمحطة القطار، ليقلاني القطار إلى المطار، وأطير بالطائرة الأولى والطائرة الثانية، ثم يقلني التكسي مرة أخرى إلى البيت!.. ابتسمت رجل عجوز واقف هناك، وقال لي إذ رأى الحقيقة: ها قد بدأت الإجازة..

فالغابت دموعي، وأومنأت له بنعم، وقلت لنفسي: يللي بيعرف بيعرف ويللي ما بيعرف بيك قول كف عدس! كانت طائرة العودة إلى بيروت مكتظة حتى آخر مقعد (حيث جلست) باللبنانيين الذين ارتفعت أصواتهم، ومنهم امرأة شابة جلست إلى يميني ولم تكف عن الثرثرة إلا قليلاً.. لأنها غفت! قالت لي، ولم أسألها أصلاً، أنها مسافرة منذ الصباح، وقد طارت إلى فرانكفورت فرحاً لتها السلطات فوراً، وأنها تتوبي فور وصولها مطار بيروت أن تستقل أول طائرة إلى السويد! قلت لها مستغربة: حقاً؟!

- إيه والله.. ضربت الشرطي الألماني لأن كلامه لم يعجبني فوضعني في الزنزانة لحين موعد السفر!! حطّت الطائرة في مطار بيروت أخيراً، بعد الساعة الثانية والنصف صباحاً، وقد تبّس جسمي وتصدّع رأسي، لأجد سائق التكسي بانتظاري..

قال لي الرجل: الأفضل أن أقود بيته كي نصل الحدود مع بزوج الفجر لأن الجنود.. الجنود السوريون يستعيرون السيارات من أجل مهماتهم.

- أعرف أنهن يأخذون الفنانات والبيك آيات. - ولكن سيارات الأجرة صارت هي الأخرى مرغوبة لديهم.

سألت الرجل عن أزمة الخيز فقال لي أنها خفت، ولم يكن في جعبته أخبار جديدة أخرى.. عبرنا من الحواجز السورية ثمانية، ودخلت البيت في السابعة صباحاً وأنا أحمد الله أنه ما زال يأويوني ولم يتحول إلى أنقاض.

من الأخبار سمعت عن تهديد الإبراهيمي لنا بجحيم أرجو له أن يصطلي به هو وبشار الذي رأى الضوء الأخضر الإبراهيمي فقصد من الأرواح قرابة 400 في يوم واحد معظمهم في دير بعلبة بحمص! وعند الفرن كان لابد من الوقوف في طابور، ولكن حوالي 45 دقيقة بدل الثلاث ساعات!

عند الفرن وضعوا رجل أمن؛ لأن الناس رغم كل المصائب الواقعة على رؤوسها لم تتعلم بعد كيف تكون منضبطة وتحترم بعضها وتعمل وفق سلوك حضاري اسمه "الوقوف بالدور"!

كان رجل الأمن فرحاً بمنصبه الجديد، ويتصرف مع الواقفين والواقفات وكأنهم تلاميذ مدرسة ابتدائية!

- أنت بعد هيك؟

- أنت.. روحي من هون.

قال ذلك لفتاة جاءت لتشتري خبزاً لتبيعه بعد ذلك على حافة الرصيف وتربح بالربرطة عشر ليارات!

وقالت لي الواقفة ورأي: لهذا الرجل وظيفة أخرى، وهي الاستماع لما يجري هنا من حوارات!

- أنت.. أعطي الفران الخمسين ليرة!

قال رجل الأمن للمرأة الواقفة قبلي.. إذ ليس مسموحاً للشخص بشراء خبز بأكثر من خمسين ليرة؛ ولكن الناس اكتشفوا للخداع وسائل، كي يشتروا كميات أكبر.

قلبت ورقة الخمسين ليرة بين أصابعي، وقلت لنفسي: ليفعلها ويقول لي بنفس الأسلوب ذات الجملة كي أرد عليه بما يكفل له تعكير مزاجه..

لم يقل لي الرجل شيئاً إذ رأني متحفزة؛ لكنني سمعت من ورائي رجلاً من نفس فصيلته يسأله عن السهرة.. سهرة رئيس السنّة!

وهمسست المرأة من ورائي: الله لا يوفقهن.. وكمان بدهن يسهروا!!!

الرجل، صاحب السهرة، تجاوزني ومديه ليأخذ الخبز من القرآن؛ فالتفت نحو رجل الأمن والنظام، وقلت له: يا سلام.. مو على أساس انتو عم تحافظوا على الدور؟!!

- نحنا ما النا دور!

- فعلًا.. أنت قلتها.. أنت لا دور لكم على الإطلاق!

لا أدرىكم من الشرر كان يقبح من عيني وأنا أرمقه بنظرة مسمومة وأتفوه لعبارتي تلك؛ ولكن يبدو أن ما رأه وسمعه كان كافياً ليجعل لسانه يجمد في فمه فلا ينطق بحرف واحد.

في هذه اللحظة انتهزت الفتاة الصغيرة الواقفة بيدي وبين المرأة ورأي الفرصة، وتجاوزتني هي الأخرى بالدور، ومع أن الغضب استبد بي من جواب الرجل ومن تصرفها هي الأخرى؛ ولكنني لم أشأ إفراجه بها، ومع أن رجل الأمن أراد إصلاح ما أفسده جوابه وتصرف صديقه، وأمرها أن تعطيني الخبز؛ فقد تركتها تمضي لتفاهة الموقف، وأنا أتأسف على حالنا، وهذا الكم الهائل من الفوضى الذي ما زلنا نتمتع به رغم كل الدروس القاسية التي ما زلنا نتلقها!!

حملت حصتي من الخبز مذهولة أنني أخرجت ما في صدري من ضيق ورميت رجل الأمن به، وعندما مررت بأخر امرأة واقفة في الصف قالت لي: الله يقويك.

وكما ابتدأ النظام المجرم سنة 2012 بماسي في حمص، أنهى السنة بنفس الماسي في حمص، وما إن انتصف الليل حتى تحول الفضاء المحيط بي لساحة معركة اختلطت فيها الأصوات الرهيبة الصادرة من صنوف شتى من الأسلحة!

فتحت الباب المطل على الحديقة قليلاً، ورفعت بصري للسماء، فرأيت أصواته حمراء تومض لعشرات القذائف المنطلقة من الجبل، ولمحت قطرات الشارع تهروء مذعورة من دوي صار أقوى مما اعتادت عليه من قبل.

وفي اليوم التالي سألت معتصم عن ليلة البارحة؛ لأنه هرب من بيته إلى بيت أمه بالمنطقة التي أسكن فيها؛ فقال لي أن ما سمعته لم يكن معركة، وإنما احتفالات جنود بشارون برأس السنة الجديدة!

استمرت الاحتفالات الهمجية حتى اليوم التالي؛ إذ بلغت ذروتها في المليحة الغربية، حيث أغري السفاحون سكانها بـصهريج

وقد طال انتظارهم له، وما أن تجمع أكبر عدد من المواطنين البسطاء القراء، يحملون غالوناتهم ليملؤوها ببعض لترات من وقد يدفعه أجسادهم الباردة، حتى استهدفتهم غربان الموت وفاجأتهم بألعابها النارية التي حصدت أرواحهم حرقاً... تلها في اليوم انفجار سيارة مفخخة في محطة وقود بمساكن بربة، وسيارة أخرى في اليوم الثالث في ركن الدين! وما زالت طقوس الاحتفالات الهمجية مستمرة، تحت مسامع العالم وأنظاره.. وإلى أجل غير مسمى حتى يظهر لبشارون ذلك البديل الذي ينتظرون.. وها نحن معهم ننتظر.. لا البديل؛ ولكن أن تجف شرایین التمويل نهائياً عن عميلهم المعتوه بإحکام إغلاق مطاري دمشق وحلب من قبل الثوار، والسيطرة الكاملة على مطار تفناز وكل المطارات المتبقية، وقطع طريق الساحل، حيث يواخر الروس.

العميل المعتوه يلقي خطبة بلهاه أخرى بعد غياب في السرداد ليحكى لنا حكاية عن الإٰرهابيين الذين تسللوا إلى سوريا من كل حدب وصوب ليقطعوا الكهرباء ويسرقوا الطحين، ويتوعدهم بالمحاسبة في يوم القيمة، وعن استمرار حملته لمكافحة "الإٰرهابيين"، وعن مبادرة يطرحها مع احتفاظ قواته بحق الرد!

كنت أستمع للمعtooه، ولتصفيق المهرّجين وهتافاتهم المعروفة بعد كل جملة سخيفة ينطق بها، وأنا أفكّر بتلك الفتاة.. رفيقة التي سقطت جريحة أثناء قصف مخبز في حلفايا، وقالت وهي مستلقية في المشفى الميداني ومربوطة بالسبروم: يا بشار.. الله شايفك وأنت مفكر ما في الله! يا رفيقة.. كم أفرحت قلبي إذ ابتسمت ابتسامة أمل تؤكّد من جديد أن بشارون ذاهب، وبرفقته الإٰبراهيمي، مع كل من خذلنا وخاننا وقتلنا، إلى الجحيم الذي أرادوه لنا!

أرفلون نت

المصادر: